شكسبير

دلائل شهرته — ولمحة من نشأته

[قدّم القاهرة في اوائل نوفمبر الماضي جوق من اشهر اجواق التمثيل الانكليزية لتمثيل روايات شكسبير في دار الاوبرا . فرأينا ان ننشر المقال التالي فيها اتماماً للفائدة]

١

اتفق الذين كتبوا عن شكسبير على انهُ من المشهورين لكنهم اختلفوا في تحديد شهرته فقال الذي كتب ترجمتهُ في انكلوبيديا ريس الانكليزية المطبوعة منذ مائة سنة إنهُ « شاعر انكليزي من مؤلفي الروايات التمثيلية وهو اشهر من ألف من القدماء والمحدثين » . وقال الاستاذ سبنسر بينس في الطبعة التاسعة من الانكلوبيديا البريطانية إنهُ « شاعر انكلترا واعظم شعراء الروايات التمثيلية الذين نشأوا في اوربا في العصور الحديثة » . وقال العالم ادمند كرشقر تشمبرس في الطبعة الحادية عشرة من الانكلوبيديا البريطانية التي طبعت سنة ١٩١٣ إنهُ « شاعر انكليزي وممثل ومؤلف روايات تمثيلية »

وقال الاستاذ دودن في طبعة حديثة من سكلوبيديا تشمبرس إنهُ « اكبر شاعر من شعراء الروايات التمثيلية » وقال الدكتور بنيامين سمث محرر سكلوبيديا السنتري إنهُ « شاعر انكليزي مشهور وهو اشهر واضعي الروايات التمثيلية » . وقال بوليو في قاموس الاعلام الفرنسوي « إنهُ اول شاعر انكليزي صنف الروايات التمثيلية » وقال لاروس في الانكلوبيديا الفرنسوية « إنهُ شاعر من شعراء الروايات التمثيلية »

واثبت الاستاذ كاتل الاميركي بالاستقراء ان شكسبير اشهر رجل عند الاوربيين والاميركيين بعد نبوليون بونابرت . وذلك انهُ اخذ ستة من اشهر الانكلوبيديات الانكليزية والفرنسوية والالمانية والاميركية واوسعها وفتش في كل منها عن الالف الذين شغلت ترجماتهم أوسع مكان فيه بالمقابلة مع غيرهم فاجتمع لديه ستة آلاف اسم فانتقى منهم الالف الذين ذكروا في هذه الانكلوبيديات الستة كلها وكانت ترجماتهم فيها اوسع من ترجمات غيرهم وقسمهم الى عشر طبقات حسب طول ترجماتهم ورتب اسماء كل طبقة حسب طول الترجمات فوجد رجالات الطبقة الاولى حسب الترتيب التالي:

نبوليون بونابرت . شكسبير . فولتر . باكون . ارسطوطاليس . غيتي . يوليوس

قيصر. لوثيروس . افلاطون . نبوليون الثالث . بتررك . هوميروس . اسحق نيوتن. شيشرون . ملتون . الاسكندر المكدوني . بتّ . وشنطون . اغسطس قيصر . ولنجتون. وفائيل . ده كارت . كولمبوس . كنفوشيوس . ولترسكوت . ميخائيل انجلو . سقراط الخ

واغفل الدكتور كاتل ذكر الانبياء والرسل حتى لا يعترض عليه رجال الدين بأن شهرتهم ليست من قبيل شهرة البشر وعنده ان ما تقدم دليل استقرائي على ان الاوربيين والاميركيين يحسبون شكسبير اشهر الرجال كلهم ما عدا نبوليون واشهر الشعراء فلا يقاس احد به من المتقدمين ولا من المتأخرين

واذا التفتنا الى ما كتب عن شكسبير ونبوليون في غير الانسكلوبيذيات ايضاً وجدنا شهرة شكسبير تفوق شهرة نبوليون كثيراً بل قد يكون سقراط وارسطو وافلاطون اشهر من نبوليون ايضاً من هذا القبيل

واشعار شكسبير ورواياته التمثيلية تملأ مجلداً كبيراً ولو ترجمت الى العربية وطبعت بقطع المقتطف وحرفه لملأت ثلاثة آلاف صفحة ومع هذا قد طبعت بالانكليزية مراراً لا تحصى وعلى اشكال مختلفة عددت منها الانسكلوبيذيا البريطانية الاخيرة ٧١ شكلاً طبعت في انكلترا وكل شكل منها طبع مراراً . ولا نظن ان احداً قرأ اللغة الانكليزية من ابنائها او من غير ابنائها الا قرأ روايات شكسبير كلها او بعضها واقتنى نسخة او اكثر منها . فني مكتبتنا اربع نسخ مختلفة بعضها قديم وبعضها حديث عدا الاجزاء التي لروايات مخصوصة او لاقوال مخصوصة مما يستشهد به من اقواله . فكم منها عند المائة والستين مليوناً من ابناء اللغة الانكليزية في اوربا واميركا واستراليا والهند وعند غيرهم من قرّاء هذه اللغة . وكم من الملايين طُبع من هذه النسخ منذ اكثر من ثلثمائة سنة الى الآن . فاذا فرضنا ان بيوت ابناء اللغة الانكليزية في اوربا واميركا واستراليا ثلاثون مليون بيت (لانهم نحو مائة وستين مليون نفس) وفي كل بيت منها نسخة واحدة ففيها الآن ثلاثون مليون نسخة كاملة عدا المختارات الكثيرة الانواع

وقد تُرجم شكسبير مراراً تراجم مختلفة الى الالمانية والفرنسوية والايطالية والاسبانية والهولندية والدنماركية والاسوجية والبوهيمية والمجرية والبولونية والروسية وترجمت بعض رواياته الى العربية باقلام كتاب مختلفين

وفي رواياته اكثر من ٢٥٠٠ كلمة من الكلمات التي لم تعد مألوفة ولذلك عني الانكليز بتفسيرها ووضع الحواشي الكثيرة عليها . وعني المصورون والحفارون في كل اللغات

بتصوير المناظر التي ذكرت فيها وحفرها وطبعها على اساليب مختلفة . وقد عددت الانسكلوبيديا البريطانية في طبعتها الاخيرة الكتب التي الفت على شكسبير في الانكليزية وغيرها من اللغات التي ترجم اليها شروحاً كانت او انتقادات او معجمات او ترجمات او تواريخ او ما اشبه فبلغت اسماؤها ما لو ترجم الى العربية لملأ اكثر من عشرين صفحة من صفحات المقتطف

وقد مرَّ على هذه الروايات الآن اكثر من ثلثمائة سنة وهي تمثل في اوربا واميركا وفي كل البلدان التي ترجمت الى لغاتها حتى في هذه العاصمة والناس لا يملونها . وعني اشهر الممثلين والممثلات بتمثيلها او نالوا شهرتهم بها . ولم يشتهر خطيب ولا منشئ في الانكليزية الا وقد رصّع اقواله بعبارات من امثال شكسبير وجوامع كلمه

والخلاصة انا اذا استثنينا مشترعي الاديان بالكثيرة الانتشار والاتباع فشكسبير اشهر رجل قام في كل العصور

وهذه الشهرة لم يحلم بها شكسبير ولا توخّاها ولا كان له في عصره شيء يذكره بها بل لو بنينا حكمنا على ما ناله منها وهو حي ثم وهو ميت الى ان مضى على وفاته مائة عام لرأينا انهُ عاش ومات مثل اواسط الكتاب فلم يبلغ مبلغ كبار العلماء والشعراء وقواد الجيش وامراء البحر مثل نيوتن وتنسن وولتن ونلدن بل كان كما قال فيه احد واصفيه كالحجارة التي تفرز المادة اللؤلؤية حول ذرة في جسمها فيكون منها جوهرة غالية الثمن ترصّع بها تيجان الملوك وهي لا تدري انها فعلت شيئاً

يدلُّك على انهُ لم يكن يعلم قيمة رواياته انهُ لم يهتم بطبعها ونشرها والذين طبعوها ونشروها في حياته لم يستأذنوهُ في ذلك ولا استشاروهُ ولا اعطوهُ شيئاً من ربحها ولعلهم غيَّروا وبدلوا فيها ما شاءوا وهو لا عن مكتفٍ بالمال القليل الذي كسبهُ من تمثيلها . ولم يخلف اولاداً يغارون على اسمه ويستفيدون من شهرته فيستخدمون وسائل الشهرة العادية كحفلات التأبين واستنشاد الشعراء والنشر في الجرائد فانهُ رزق ابناً وحيداً وابنتين فابنهُ توفي قبلهُ بعشرين سنة وابنتاهُ تزوجتا ولكن مات اولادهما في حياتهما وانقطع نسلهما

ولم يكن من بيت غنيّ ومجد فان اباهُ كان جزّاراً او بائع جلود وكان في اول امره على شيء من السعة ثم افتقر الى درجة الاملاق . وهو نفسهُ تزوج بفتاة اكبر منهُ سنّاً لانها كانت على شيء من الثروة ثم هرب من وجه القضاء ولجأ الى التمثيل للتعيُّش

ولم يكن في امرِ الامر ممثلاً بل كان خادماً في دار التمثيل يمسك خيول الذين يأتون راكبين ولا خدم معهم يمسك خيولهم . ثم لما انتظم بين الممثلين وظهرت براعتهُ في التمثيل وفي تأليف الروايات التمثيلية اكرمهُ اهل وطنهِ كما يكرمون كل ممثل بارع ومنشىء بليغ ولكنهم لم يغالوا في اكرامهِ. ولما توفي رثاه بعض اصدقائهِ ولم يبالغوا في مدحهِ بل وصفوهُ بالادب والظرف . ويستدلُّ من ذلك كلهِ ان الشهرة التي لهُ الآن مكتسبة ، نشأت بعد موتهِ وتزايدت على مرور الزمن. فكيف ذلك ؟

٢

التمثيل فن جميل وتجارة رابحة ومجالهُ واسع جدًّا عند الاوربيين والاميركيين لان النساء يشاركن الرجالَ فيهِ ولا تأنف اجل النساء والبنات واطربهنَّ صوتاً ان تكون في عداد الممثلات . ولا يخفى ان المناظر الجميلة والاصوات المطربة تستهوي القلوب واذا اقترنت بروايات تاريخية او فكاهية كثيرة الحوادث غريبة النوادر مدهشة الوقائع مشتملة على تاريخ الامة صار لها اعظم وقع في النفوس . واذا كانت كثيرة الاشعار والاغاني وتكررت مرةً بعد اخرى استظهر السامعون كثيراً منها فالفتها آذانهم وادمنتهم فصاروا يرتاحون اليها ولا يصبرون على الانقطاع عنها . واذا كانت كثيرة النكات الادبية والفكاهية مملحة بالمواعظ والحكم وجوامع الكلم طرب لها كل احد حتى العلماء وخدمة الدين . واذا تناولت كل اعمال الناس ومعايشهم رجالاً ونساءً حتى يرى فيها كل احد شيئاً ممَّا يلمُّهُ او يسرُّهُ به تناول الاقبال عليها كل الطبقات

ولكن ذلك كلهُ لا يكفي ليصيِّر لها الشأن الذي صار لروايات شكسبير بل لا بدَّ من اناس يحملون الجمهور على الرغبة في مشاهدة الروايات بكل طرق الترغيب. واتفق ان رأى البعض في صناعة التمثيل مجالاً واسعاً للكسب لانها تحتمل الرواج الى ما لا حدَّ لهُ فاستخدموا لها امهر الرجال في الالقاء والتمثيل واجل النساء واطربهنَّ صوتاً وارشقهنَّ حركةً ودفعوا لهم ولهنَّ الاجور الطائلة وجهزوا مشاهد التمثيل بما يتلون بهِ ازياء الناس في كل العصور وانواع اسلحتهم واشكال منازلهم وطرق معيشتهم واختاروا امهر الكتَّاب لوصف التمثيل وانتقاد الممثلين والممثلات وصوروهم صوراً ترتاح لها النفوس وذكروهم وذكروهن بما لا مزيد عليهِ من المدح والتبجيل فصار المرء في اوربا واميركا يهيء ما يدفعهُ لمشاهدة التمثيل كما يهيء ما يدفعهُ لشتري طعامهِ ولباسهِ ويهتم بهِ اكثر مما يهتم بالمال الذي ينفقهُ على تعليم اولادهِ . والكل في ذلك سواء غنيهم

وفقيرهم . ورأى هؤلاء المتاجرون بالتمثيل المكتسبون منهُ ان روايات شكسبير مُلْك مشاع لا صاحب لهُ ولا يطالبهم احد بحق كما يطالبهم المنشئون فاكثروا من تمثيلها وترغيب الناس فيها فزاد اقبالهم عليها اقبالاً وصقلتها الالسنة على مرور الزمن واشربت الافئدة معانيها ومبانيها . وقد اجمع كبار المنتقدين من الانكليز انها جديرة بذلك بل هي احرى به من غيرها . وقد اجمع النقاد على ان شكسبير كان من اعلم الناس بطبائع الناس حتى ان الذين طبعوا رواياته في حياته على غير علم منهُ جعلوا الوصف المرغب في مشتراها انها تشرح طبائع الناس على اختلاف درجاتهم وعناصرهم . ولما رثاهُ صديقهُ الحبر بن جنصن جعل بيت القصيد في رثائهِ ما ترجمتهُ

ان الطبيعة فاخرت فيهِ الملا وتسربلت ما حاكهُ في وصفها

ونظر اليهِ شعراء الانكليز كلهم من عهدهِ الى الآن نظر التلميذ الى استاذهِ حتى قال الشاعر دريدن اني بالرهبة والوقار اطلب بركتهُ وانا اكتب

فالشهرة التي حازها حازها بما في رواياتهِ واشعارهِ من البلاغة والتبريز عن عواطف الناس وامالهم في كل اطوارهم ودرجاتهم وبما بذلهُ اصحاب مشاهد التمثيل من العناية لترغيب الناس فيها ولولا ذلك لاهملت كما اهمل غيرها .

***

الشهرة أثمن المقتنيات فلا تنال عفواً ولا يشتهر احد في مطلب من المطالب الا وفي طبعهِ واحوالهِ ووسائلهِ ما ينيلهُ هذه الشهرة . والشعراء ارباب الخيال الذين يجردون الصور البديعة من الطبيعة والحكم البالغة من التاريخ والمعاني الرشيقة من القرائح يجب ان يكونوا في بلاد كثرت نجادها ووهادها وانهارها وغدرانها وسهولها ووعورها ورياضها وغياضها كالشام وسويسرا وفرنسا وانكلترا وبعض جهات اليمن ونجد وان يقفوا على التواريخ القديمة والحديثة واخبار الامم ومواقع الحروب وسياسات الدول واساليب الاحكام . ويتضلعوا مما انشأهُ ارباب الكلام وناظمو جواهر المعاني من نحو اليونانيين والمصريين والاشوريين والبونانيين والرومانيين والفرس والعرب والهنود وغيرهم من امم المشرق والمغرب . فاذا اجتمعت للشاعر هذه الوسائل وكانت بالفطرة الموروثة ميّالاً الى ابتكار المعاني ونظم القريض سهل عليهِ التبريز على الاقران والاستيلاء على العقول . وكان شكسبير من هذا القبيل كما سنبينهُ في هذه المجانة معتمدين على ما جاء في ترجمتهِ في الطبعة التاسعة من الانكلوبيديا البريطانية بقلم

الدكتور بنس استاذ المنطق والبيان في جامعة سنت اندرو وعلى بعض ما جاء في الطبعة الحادية عشرة بقلم العالم هيوكر يشلم :

٣

ولد شكسبير بمدينة ستراتفورد في اواخر شهر ابريل سنة ١٥٦٤ وهي مدينة قديمة على نهر اڤون عُرفت هي وما يحيط بها من قبل عهد الرومان الذين اجتاحوا البلاد الانكليزية واضافوها الى ممالكهم وانشأوا فيها القصور والمعاقل. واشتهرت في الحروب الاهلية التي توالت بعد ذلك وتقام فيها سوق للمواشي من اشهر الاسواق في تلك البلاد

ولا يعرف جمال البلاد الانكليزية الا من زارها وتنقل في ربوعها فصعّد في جبالها وصوّب في وهادها وأوغل في حراجها وادغالها وراقب تحدّر تلالها واجال طرفهُ فيما حولهُ من البلاد فرأى مشارفها بين كاسٍ تجللهُ الحراج والادغال وعارٍ علاهُ الثلج والغمام وقد قامت بينها القصور والابراج معاقل امرائها الاقدمين واغنيائها المحدثين وكل شرفة من شرفاتها تتحدث بتاريخ فارس مغوار او غادة حسناء واخبار تداولها الخلف عن السلف وبنوا عليها اشعارهم واغانيهم . هذه حال البلاد التي لم يفتح شكسبير طرفهُ الا وقع عليها فاعادت اليهِ ذكرى سكانها السالفين . واهالي البلدان الجبلية يكثر تحدثهم باخبار اسلافهم فلا بدَّ من ان يكون شكسبير قد سمع الكثير منها ووعاهُ في ذاكرتهِ واستعادهُ حينما ألَّف رواياتهِ بعد ان وقف على التواريخ المكتوبة واستخرج منها ما نظم منهُ تلك القلائد

وكان من بيت له شأن في ستراتفرد فان جدَّه رتشرد كان يسكن بيتاً كبيراً على نحو ثلاثة اميال او اربعة من تلك المدينة ولهُ مزرعة واسعة هناك وكان لهُ ولدان جون وهنري فانتقل جون الى ستراتفورد واقام فيها تاجراً وهو ابو صاحب الترجمة وكان يبيع الجلود وما يصنع منها واشتغل ايضاً ببيع الصوف والخشب والحبوب ويقال انهُ كان لحَّاماً ايضاً ولا غرابة في ذلك لان ستراتفورد مركز بلاد زراعية وهي سوق لها ومن كان عملهُ الزراعة وانتقل اليها يغلب أن يتاجر بالسلع الزراعية . والظاهر انهُ كان عالي الهمة ذكيَّ الفؤاد مقداماً فلم يمضِ عليهِ خمس سنوات حتى جُعل من اعيان المدينة وتدرَّج الى ان صار عمدة لها ورئيساً لمجلسها البلدي ومحكمتها المحلية وكان ذلك سنة ١٥٦٨ . وتدلُّ الدلائل على انهُ كان قد صار من ذوي السعة فانهُ اشترى بيتين

في المدينة سنة ١٥٥٦ واقترن في السنة التالية بسيدة من بيت وجيه اسمها ماري اردن ورثت من ابيها جانباً من المال ومزرعة فيها نحو ستين فداناً وبيتين او ثلاثة فاتسعت ثروته بذلك ثم اشترى بيتين آخرين ويقال ان ابنهُ صاحب الترجمة ولد في احدهما. ثم قلب لهُ الدهر ظهر المجن فخسر اكثر ثروته لأنهُ كان كريماً متلافاً قليل التدبير سريع التأثر لا يعنى بالطفائف ولا يدقق في اعماله وكان فوق ذلك محبًّا للجاه والتأنق فلما كان عمدة المدينة اتى بجماعات من الممثلين وجعلهم يمثلون في دار المجلس البلدي احتفالاً بارتقائه الى هذا المنصب ففرس في نفس ابنه محبة التمثيل لأن ما يشاهدهُ الفتى في حداثته يؤثر فيه تأثيراً شديداً وقد يغير مجرى حياته . وطلب من نقيب الاشراف حينئذٍ أن يحسبهُ بينهم ويعطيهُ سمة الشرف، اي ان نفسهُ كانت جامحة الى المعالي وحب الشهرة مع انهُ كان لا يزال تاجراً من عامَّة التجار في بلد صغير. فهذه الاخلاق كلها آلت الى فقدانه ما جمع من الثروة فرهن املاكهُ واستغرق في الدين واضطرت زوجتهُ ان تبيع املاكها لايفاء جانب من دينه وظل في حالة ضيق شديد الى ان افلح ابنهُ وساعدهُ على ايفاء ديونه واسترداد بعض الاملاك التي باعها . ولكن فقرهُ لم يحط منزلتهُ في عيون قومه لاسيما وانهُ بقي ينفق كاغنيائهم

اما زوجتهُ ماري اردن فكانت من عائلة قديمة وجيهة كما تقدم ومن اسلافها رجل اسمهُ الدن صاهر بيت الملك المعروف ببيت اثلستين ولذلك قدمها مزوج بقدم اشراف النورمنديين. وقام من اسلافها رجال اشتهروا بمناصرة الملوك في حروبهم . ووجهاء الانكليز يمتازون عن عامَّة الشعب بآدابهم واخلاقهم امتيازاً كبيراً رجالاً ونساءً وقد كانت ام شكسبير من الطبقة العليا ولا بدَّ انها اثرت فيه تأثيراً كبيراً بآدابها واخلاقها وبما يعرف من تاريخ اهلها ووجاهتهم لاسيما وانهُ بكرها والامهات الانكليزيات يعنين خاصة بتربية البكر من اولادهنَّ . فما كان والداهُ في سعة تعلم وتهذب ورأى من بشاشة امه وطلاقة وجهها ما ساعدهُ على وصف النساء وهنَّ في اوج مجدهنَّ ولما ضاقت الاحوال وجاءت ايام البؤس رأى من صبرها وطول اناتها ما ساعدهُ على وصف النساء وهنَّ في حالة البؤس والشدَّة . فاليسر والعسر اللذان اصابا والديه اثرا في نفسه تأثيراً شديداً كما اثرت اخلاقهما فيه . ثم إن ما حلَّ بهما من الضيق حملهُ على بذل اقصى جهده لكي يكتسب مالاً يساعدهما به ويردهما الى الحالة التي كانا فيها فضل عن طيب نفس وزاد بذلك ليناً ودعة